

المهدية في عيون الرحالة الأوروبيين *Mahdia in the eyes of european travelers*

د. سنية حمدي* كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، (تونس)

hamdiyasmine21@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022 /06/28 تاريخ القبول: 2022 /10/22 تاريخ النشر: 2022 /12/31

ملخص بالعربية:

بدأ الرحالة الأوروبيون يولون إهتماما متزايدا بالمهدية منذ الفترة العثمانية، وخصوصا إبتداء من القرن السادس عشر، لما شرعت المبادلات التجارية بين الدول الأوروبية ومدن الساحل، ومثلت بذلك المنطقة مجالا لمطامع كبرى القوات البحرية. فكانت الرحلات طيلة الفترة العثمانية في إطار إستطلاعي منه ما كان ذو طابع عسكري والآخر ذو طابع علمي، فساهمت بذلك في عرض صورة لشتى مجالات مدينة المهدية خلال الفترة العثمانية وتحديدًا القرن التاسع عشر، بفهم أدق للتنوع العرقي والإثني للبلاد ثم الخصوصية الإقتصادية والتجارية للمنطقة، فضلا عن الإرث المعماري والعادات المحلية. وقد كان الفضل لكتابات الرحالة في التعريف بهذا المجال الساحلي. وبالرغم من هذه الأهداف الإنسانية، فإنه على ما يبدو أن الأغلبية هؤلاء الرحالة الأوروبيون وتحديدًا الفرنسيين منهم قد ساهموا عبر كتاباتهم في تسيير التواجد الأجنبي بالبلاد عبر العمليات الإستطلاعية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تحول البلاد التونسية إلى مستعمرة فرنسية سنة 1881.

كلمات مفتاحية بالعربية: المهدية، الرحالة الأوروبيون، الفترة العثمانية، تراث، تاريخ.

Abstract :

European travelers began to pay increasing attention to Mahdia since the Ottoman period, especially from the sixteenth century, when commercial exchanges between European countries and coastal cities began, and thus represented the region a field for the ambitions of major naval forces. The trips throughout the Ottoman period were of exploratory purposes, some of which were of a military nature and the other of a scientific nature, thus contributing to presenting a picture of the various areas of the city of Mahdia during the Ottoman period, specifically the nineteenth century, which a more accurate understanding of the racial and ethnic diversity of the region, its economic and commercial specificity, as well as architectural heritage and local customs. The writings of travelers were credited with introducing this coastal area. Despite apparent humanitarian goals, it seems that the majority of these European travelers, particularly the French, have contributed through their writings to managing the foreign presence in the country through reconnaissance operations, which ultimately led to the transformation of Tunisia into a French colony in 1881.

Keywords: Mahdia, european travelers, ottoman period, heritage, history.

المقدمة

لطالما لامست نفس الإنسان رغبة في التنقل والترحال، فتعددت وإختلفت الأسباب الداعية إلى ذلك، كطلب العلم ونشر الأفكار وزيارة المعالم الأثرية والتنقيب في التراث المحلي وتجميع الكتب والتحف وكتابة التقارير العسكرية¹ إلى غير ذلك. بلغت هذه الرحلات من أقصى العالم الأوروبي إلى البلاد التونسية وتحديدًا الساحل التونسي خلال الفترة العثمانية، فكان الساحل وجهة الرحالة الأوروبيين على إختلاف مشاربهم وأوطانهم، وتميزت أغلب رحلاتهم بطابعها التوصيفي الجغرافي والعمراني لعناصر الجهة.

¹ - حسن (محمد)، القيروان في عيون الرحالة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، 2009، الطبعة الأولى، ص23.

بدأ الرحالة الغربيون يولون إهتماما متزايدا بالمهدية منذ الفترة العثمانية، وخصوصا إبتداء من القرن السادس عشر، لما شرعت المبادلات التجارية بين الدول الأوروبية ومدن الساحل، ومثلت بذلك المنطقة مجالا إستراتيجيا ومجالا لمطامع كبرى القوات البحرية. فكانت الرحلات في إطار إستطلاعي منه ما كان ذو طابع عسكري والآخر ذو طابع علمي، الأمر الذي يطرح عدد من نقاط الإستفهام كالتالي:

ما مدى أهمية الرحلة في كتابة التاريخ المحلي؟ وكيف نظر الرحالة الأوروبيون بمختلف أصنافهم إلى مدينة المهدية خلال الفترة العثمانية؟ وهل تمكنت كتاباتهم من تجاوز الجانب الوصفي للمجال من أجل المساهمة في كتابة تاريخ المهدية وتراثها وجغرافيتها؟

1- أهمية الرحلة في كتابة تاريخ مدينة المهدية ومميزاتها منذ بداية الفترة العثمانية

1-الرحلة مصدرا لكتابة التاريخ المحلي بالمهدية

تعددت المصنفات والمصادر التي تناولت الساحل التونسي والمهدية تحديدا مثل الوثائق الأرشيفية والمخطوطات، فضلا عن كتب الحوليات والطبقات والفقهاء. إلا أننا سنسلط الضوء في مبحثنا على الرحلات الأوروبية أثناء زيارة البلاد التونسية في الفترة العثمانية التي مرت بالساحل التونسي وتناولت بالوصف والتدقيق مدينة المهدية.

قبل التطرق إلى الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مدينة المهدية تجدر الإشارة إلى أهمية كتب الرحلة في كتابة التاريخ، وفي هذا السياق يشير الأستاذ محمد العربي السنوسي "أن أدب الرحلة لا يزال محافظا من أهم الأدبيات والكتابات في الإنتاج الفكري للبشرية، فمنذ كتب "هوميروس" كتاب الأوديسا" وتناول مآثر الشعوب والأمم القديمة حتى بلغ إلى الجنوب التونسي وتحديد جربة"¹. ويعتبر أن بداية تاريخ أدبيات الرحلة كان مع الأوروبيين منذ القرن السادس عشر مع بداية الإكتشافات الجغرافية الأولى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانت الرحلة الإستطلاعية للعالم مرحلة أولى للولوج إلى أسرار البلاد التونسية ومجالها الساحلي وتحديد المهدية.

2- دراسة إحصائية حول الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مدينة المهدية خلال

الفترة العثمانية: دلالات ذلك وأغراض الرحلة.

سنحاول إحصاء عدد الرحالة الأوروبيين الذين وصفوا المهدية طوال الفترة العثمانية أي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر وسنتتبع الأغراض التي تنقل من أجلها الرحالة، فضلا عن

¹ - دونان (هنري)، مذكرة عن إيالة تونس (1856-1857)، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي،

دار سحر للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2012، ص 5.

محاولة تقصي الإنتماء الجغرافي لأغلبهم حتى تتمكن من معرفة الأغراض الحقيقية من كتابات أدب الرحلة، وهذا ما سيبينه الجدول التالي:

جدول عدد1:

إسم الرحالة الأوروبي	جنسية الرحالة	الغرض من الرحلة
مارمول Marmol	إسباني	عسكري
باليسي Pélissier	فرنسي	إقتصادي، إجتماعي، أثري
ديبوا Jean Depois	فرنسي	إقتصادي إجتماعي
جون بونساي Jean Poncet	فرنسي	إقتصادي إجتماعي
بول سيباك Paul Sebag	فرنسي	إقتصادي إجتماعي
جون أندريه بيسونال Jean André Peyssonnel	فرنسي	إقتصادي إجتماعي، أثري
بيريتي Perpetua	إيطالي	إقتصادي إجتماعي
ديفونتان و بيسونال Peyssonnel et Desfontaines	فرنسي	إقتصادي إجتماعي
شارل دو شاريسون Charles De chassirons	فرنسي	عسكري
قيران Guérin	فرنسي	أثري
هانري دونان Hunry Dunant	سويسري	إقتصادي إجتماعي
قانيات وسالادان Cagnat et saladin	فرنسي	إقتصادي، إجتماعي، أثري
دو فلو De Flaux	فرنسي	إقتصادي
جون ببتيسست قراماي Jean – Baptiste Gramaye	فرنسي	إقتصادي
مارسال وفرنك لويس Marcel et Frank Louis	فرنسي	أثري
و لانسان De Lanessan	فرنسي	إقتصادي

قائمة إسمية للرحالة الأوروبيين الذين زاروا مدينة المهدية من سنة 1594 إلى سنة 1884¹.

¹ - قمنا بإنجاز الجدول من خلال الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المهدية منذ أواخر القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، أنظر:

- دونان (هنري)، مذكّرة عن إيالة تونس...، نفس المصدر، ص 5.

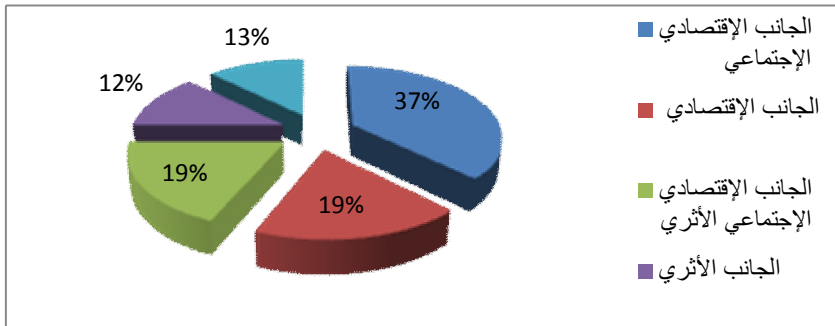
- بيسونال (جون أندريه)، الرحلة إلى تونس (1724)، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003، ص 5 و ص 74 و ص 114.

- كبريال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الجزء الثالث، الرباط، 1989، ص ص 70-94.
- Pélissier (E), Description de la régence de Tunis, 2^{ème} édition, Tunis 1980, p.89.
- De Flaux (A), La régence de Tunis au dix – neuvième siècle, Challamel Ainé, Libraire editeur, Paris 1865, p.253.
- Despois (Jean), La Tunisie Orientale Sahel et Basse steppe étude géographique, Presses de l'universitaire, France, Paris, 1955, p.486.
- Sebag (Paul), « Les juifs de Tunisie au 19^{ème} siècle, d'après JJ BENJAMIN », Les cahiers de Tunisie, n°28, 4^{ème} trimestre, 1959, p.501
- Poncet (Jean), Paysage et problèmes ruraux en Tunisie, pub de l'université de Tunis, 1962, p.124.
- De Lanessan (J.L), La Tunisie, Paris, Félix Algan Editeur, 1887, p.5.
- Cagnat (C) et Saladin (H), Voyage en Tunisie, Librairie Hachette, Paris 1894, p.41.
- Gramaye (Jean – Baptiste), Le royaume de Tunis au XVII^e siècle, traduction Azzedine Guellouz, Editions Bouchene, p.97.
- Peyssonnel et Desfontaines, Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger, Librairie de Gide, T 1, Paris 1938, pp.105-107.
- Peyssonnel (J A), Relations d'un voyage sur les cotes de Barbarie, présentation et notes de Lucette Valenci, Paris 1987, p.97.
- De chassirons (Charles), Aperçu pittoresque de la régence de Tunis, Paris, 1849.
- Pélissier (E), Description de la régence de Tunis, 2^{eme} édition, Tunis 1980, pp.95-96.
- Guerrin (V), voyage archéologique dans la régence de tunis, paris 1862, p.132.
- Hannezo (C), Mahdia, notes historiques, éd. Cérès Productions, Tunis, 1968 , p.247.
- Perpetua (J), Géographie de la régence de Tunis, Tunis, Vittorio Finzi imprimeur Libraire Editeur, 1883, p.21.
- Marcel (J .J) et Louis (Frank), Histoire de Tunis, éditions Bouslama, 2^{ème} édition, p.57.

يتضح لنا من خلال الجدول أعلاه أن عدد الرحالة الذين أحصيناهم في تناول تاريخ المهديّة في الفترة الممتدة من سنة 1595 (تاريخ رحلة "كريخال مارمول") إلى سنة 1884 (تاريخ رحلة "جون ديبوا") قد بلغ تسع عشرة رحلة أوروبي، بغالبية للرحالة الفرنسيين الذي إحتكروا 85% من إجمالي الرحالة أي أن الكتابات التي دونت حول مدينة المهديّة خلال الفترة العثمانية كانت كتابات فرنسية صرفة وعلى ما يبدو أن لذلك دلالات عديدة وهامة، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقا في عنصر الذي تناول فيه الأغراض الحقيقية لهذه الرحلات.

تجدر الملاحظة أن مكانة المهديّة في أدب الرحلة يعود إلى أهميتها كمجال إستكشافي مهّز بالنسبة إلى العديد من الرحالة العرب والغربيين. فإختلفت الأغراض من هذه الرحلات منها ما هو علمي ومنه ما هو عسكري، وجلها كما عبر عنه الأستاذ خليفة شاطر كان في إطار "التعبير عن إرادة توسيع الأفق العلمي وإثراء معرفة المجتمعات غير الأوروبية مع ما إتسمت به هذه النظرة المؤسسة بشعور التفوق الذي تبناه أغلبية الرحالة"¹ عند مرورهم بأحد المدن التونسية أو التعامل مع اليومي لسكان البلاد. فمنهم من حاول توخي الموضوعية بوصف ما شاهدته وعاشه على سبيل المثال لا الحصر الرحالة الفرنسي "أندريه بيونسال" Peyssonnel.

من خلال هذه الدراسة الإحصائية تبين لنا تباين غايات الرحالة، فمنهم من تناول الجانب الإقتصادي والإجتماعي للمهديّة، وآخرون درسوا الجانب العسكري السياسي والبعض إهتم بالجانب الأثري كما يوضحه الرسم البياني الآتي:



الرسم البياني عددا:1: الجوانب التي تهوّل إليها الرحالة الأوروبيون في كتاباتهم عن المهديّة خلال الفترة العثمانية.²

¹ - بيسونال (جون أندريه)، الرحلة إلى تونس...، مصدر سابق، ص 5.

² - قمنا بإنجاز الرسم البياني اعتمادا على المعطيات التي وفّرها الجدول الأول حول القائمة الإسمية للرحالة الأوروبيين الذين زاروا مدينة المهديّة من سنة 1594 إلى سنة 1884.

يوضح الرسم البياني أن ست رحالة إهتموا في كتاباتهم بالتاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمهدية أي أكثر من الثلث من إجمالي الرحالة، ثم نجد في المرتبة الثانية الذين تناولوا الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والأثرية بـ38% من إجمالي الرحالة، وتلها الدراسات العسكرية بـ13% وأخيرا الجوانب الأثرية.

وتقدم الإحصائيات صورة حول أغراض الرحالة الغربيين في وصفهم للمهدية، فكما هو واضح أن كتاباتهم أخذت طابعا علميا يتناول التاريخ الإقتصادي والإجتماعي بمرتبة أولى من أجل فهم أعمق للمجتمعات العربية عموما والمجتمع التونسي تحديدا لمزيد تعميق المعرفة بتاريخ المجتمعات غير أوروبية وفهم أدق للعالم العربي وأفكار شعوبه وأممه في تلك الفترات التاريخية على اختلافها.

بالرغم من أهداف الرحالة في نشر المعرفة بتاريخ وتراث المهدية وتوطيد معرفة الأمم الغربية بالشعوب الشرقية، فإنه على ما يبدو أن الغرض الرئيسي لعدد كتب الرحلة خاصة الفرنسية منها قد ساهمت في تسيير التواجد الفرنسي بالبلاد عبر العمليات الإستطلاعية لخدمة مصالح المشروع الإستعماري بإستغلال مصادر ثروة هذه المجالات الجغرافية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تحول البلاد التونسية إلى مستعمرة فرنسية سنة 1881، وقد أشار الأستاذ محمد العربي السنوسي أن تكثيف الرحلات العلمية أو العسكرية أثناء القرن التاسع عشر كان موازاة مع حركة التوسع الأوروبي ببلاد المغرب ومساهمة عن قصد أو بصفة تلقائية، في تهيئة مشروع الإحتلال.

3- تاريخية المهدية

إكتسبت مدينة المهدية أهميتها منذ كانت عاصمة للفاطميين ثم الزيريين، ولعل هذه الأهمية هي التي جعلتها منطقة صراع مستمر بين الكيانات السياسية التي قامت بإفريقية منذ تأسيس هذه المدينة¹ من جهة وبين القوى المتوسطة الأخرى من جهة ثانية، وهي القوى التي مثلها النورمان، ثم البنادقة والجنويون²، وصولا إلى الإسبان والعثمانيين. ويعسر على الباحث في تلك الفترة تناول حيثيات

¹ - أسست مدينة المهدية من قبل الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في أوائل القرن العاشر. واستمر توظيف الميناء الفاطمي المنحوت في الصخر الذي كان يتسع لنحو ثلاثين مركبا مستعملا في العهد الحفصي. كما ظلت إحدى داري الصناعة الفاطميتين فاعلة في تلك الحقبة، وكان موقعها قرب المسجد الجامع، مما يفسر الدور الحربي الذي لعبته المدينة في المقاومة البحرية ومهاجمة القراصنة، لمزيد التعمق راجع: البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب، الجزء الأول، 1992، ص 29.

² - برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني، تونس 1988، ص 232.

القرن السادس عشر بمدينة المهدية، نظرا إلى قلة المصادر. فقد حاولنا تتبع ما أخبرتنا به المصادر الأوروبية لفهم أعمق للوضعية السياسية والأمنية للمهدية خلال القرن السادس عشر. تخبرنا كتابات الرحالة عن وضع مدينة المهدية خلال تلك الفترة، فعلى ما يبدو أنها عانت بشكل فادح من الهجمات الإسبانية وغيرها ويخبرنا الرحالة الإسباني كريخال مارمول Marmol عن تأرجح مدن الساحل بين قبضة غزوات الإسبان من جهة وقبضة حملات العثمانيين من جهة ثانية لتنتهي المواجهات بين الطرفين بضم مدن الساحل والمهدية تحديدا إلى الحكم العثماني¹، لدرجة أنها خلت تماما من سكانها وزالت المدينة عن الوجود تماما، فقد هدمت مبانيها وفقدت أبناءها نتيجة الأسر والتقتيل ولم ينج من ذلك إلا عدد زهيد. كان التخريب شاملا لدرجة أن بعضهم ذكر أنه لم يعد في الإمكان التعرف عليها حتى من قبل أهلها² ولبثت حتى سبعينات القرن السادس عشر مدينة مهدمة وليس فيها سكان حتى إنه كان بإمكان السفن المسيحية إرتياد الماء منها بدون أن تخشى أي إزعاج³. لكن في ثمانينات القرن المذكور يذكر الأستاذ عبد الجليل التميمي رغبة الذين بقوا من سكانها في إعادة سكنى مدينتهم فكانوا يلتمسون من السلطنة إعفاءهم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات⁴ وهو ما يتفق مع بعض المؤرخين⁵ وقد أحيت حسب ما يتبين حوالي 1594، وحصنت المهدية ببرج عثماني سنة 1595 عندما إنبعثت المدينة بعد خرابها.

من خلال ما تقدم يمكن الاستنتاج بأن استقرار الأتراك العثمانيين بالمدن الساحلية قد اقتصر في البداية على العناصر العسكرية وقد اعتبرت الأستاذة دلنדה الأرقش أن الفضاءات الساحلية كانت مراكز جذب للفئة التركية، فقد كونوا فيها مراكز سلطة جهوية مستقلة بذاتها⁶، إلا أن هذا الأمر

¹ - كريخال (مارمول)، إفريقيا...، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ص 70-94.

² - نفسه، الجزء الثاني، ص ص 526-527.

³ - Lanfreducci et Bosio, «Costa e discorsi di barberia», traduit en français par Pierre Grandchamp, *Revue Africaine*, LXVI, 1925, p.127.

⁴ - مهمة دفترى رقم 72، بتاريخ 23 جوان 1594، وثيقة 233، ص 282، وثيقة إعتمدها الأستاذ عبد الجليل التميمي وأدرجها في كتابه دراسات في التاريخ العثماني المغربي القرن السادس عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ماي 2009.

⁵ - ألتر (عزيز سامح)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة النشر، الطبعة الأولى، بيروت 1989، الجزء الثاني، ص ص 268-269.

⁶ - أنظر حول هذا الموضوع مثلا: الأرقش (دلنדה)، "المدينة وفضاءها الخارجي: المنستو في القرن 19"، *المجلة التاريخية المغربية*، عدد 47-48، 1987، ص 10.

ينطبق بوضوح على المهديّة التي كانت مركز استقرار نهائي ومكثف للأتراك العثمانيون، في حين كان هذا الاستقرار أقل وضوحا بسوسة والمنستير. فماهي الخصائص البشرية للمهديّة خلال الفترة العثمانية؟

4- مميزات المهديّة خلال الفترة العثمانية من خلال عيون الرحالة الأوروبيون

أ- المميزات البشرية

إختلفت التقديرات حول عدد سكان المهديّة، فقد كانت المدينة تضم في الثلث الأول من القرن الثامن عشر ما يزيد عن 300 نسمة¹ وذلك أثناء خضوعها لحكم علي باشا سنة 1735. أما الرحالة "باليسي" Pélissier فقد اعتبر أنها قدرت بـ 9 آلاف شخص سنة 1762². وأما الإحصائيات الجبائية لسنة 1861-1862 فهي تقدر عدد المطالبين بدفع المجرى 2354 من إجمالي 21704 لوطن المنستير³. ويقدرها الرحالة "دوفلو" De Flaux بـ 12 ألف سنة 1865⁴.

وتمكننا دفاتر الإحصاء من معرفة الأصناف الاجتماعية للمجتمع المهدي التي تتكون أساسا من جماعات موزعة كالتالي وهم: الحنفية (الأتراك) والمساريج⁵ والبلدية والزواولة⁶ والعامرة أو العمامرة⁷ ومعاتيق العبيد واليهود⁸ والبرانية¹ أو ما يطلق عليهم بسكان المدن الأخرى. وانطلاقا من الدفاتر

وراجع كذلك:

-Bachruoch (Taoufik), *Les Elites tunisiennes du pouvoir et de la dévotion contribution à l'étude des groupes dominants (1782- 1881)*, Publications de l'université de Tunis1,1989, p.507.

¹ - ابن يوسف (الصغير)، *المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي*، تقديم وتحقيق احمد الطويلي، تونس 1998، الجزء الثاني، ص 157.

² - Pélissier (E), *Description de la régence...*, op.cit, p.89.

³ - *Archive nationale, Série historique*, Estimation tirée des correspondances caidales, document 58, dossier 579, carton 53, A 3.

⁴ - De Flaux (A), *La régence de Tunis...*, op.cit, p.253.

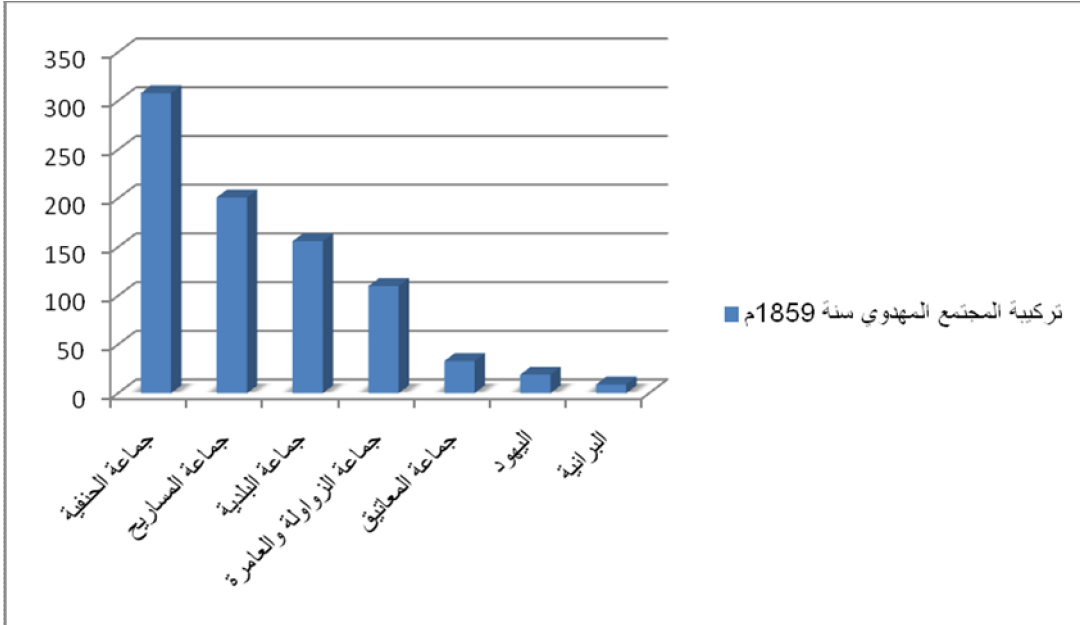
⁵ - هم الجنود المسرحون من الخدمة العسكرية.

⁶ - عسكر من أصل بربري قدموا من شمال البلاد التونسية.

⁷ - أصيلي الساقية الحمراء.

⁸ - الأرشيف الوطني التونسي، دفاتر عدد 945 وعدد 942 وعدد 955 وعدد 960 وعدد 971 وعدد 855.

الجبائية، نلاحظ التنوع البشري والإثني للأطياف العرقية بمدينة المهديّة خلال القرن التاسع عشر كما يوضحه الرسم البياني التالي حول عدد الذكور المطالبين بدفع المجرى لسنة 1859:



الرسم البياني عدد 2: الخصائص البشرية للمهدية سنة 1859.²

نلاحظ من خلال الرسم البياني أن المجتمع المهدوي قد تكون من أغلبية تركية وبلغت نسبة عائلات هذه الفئة حوالي 60%³ في ستينات القرن التاسع عشر. قدر عدد الأتراك المطالبين بضريبة المجرى حسب إحصائيات سنة 1864 ما يساوي 269 بنسبة تبلغ 41.5% من مجموع المطالبين بهذه الضريبة، في المقابل نجد فئة الأهالي أي "البلدية" بـ 120 فرداً أي بنسبة 18.5%⁴، أما المساريج فهم لا يمثلوا إلا 20% فقط من المطالبين بدفع المجرى، في حين 39% فتتكون من باقي العناصر الموجودة

¹ - فئة البرانية التي تتكون من الجرابية وسكان وفدوا من بلاد الأعراض ومطيش الساحل أو طياش صفاقس القاطنين بالمهدية وطياش عمل المنستو القاطنين بالمهدية وجماعة الطرابلسية أنظر الدفاتر التالية: الأرشيف الوطني التونسي، دفاتر عدد 870 وعدد 855 وعدد 950 وعدد 900 وعدد 925 وعدد 759.

² - الأرشيف الوطني التونسي، دفاتر عدد 759.

³ - Despois (Jean), *La Tunisie Orientale...*, op.cit, p.486.

⁴ - الأرشيف الوطني التونسي، دفاتر عدد 942.

بالمدينة أي البلدية والوافدين المحليين¹، مما يدل على تفوق العنصر التركي على بقية الفئات الأخرى في ملكية الأراضي والزياتين. يمكن إستنتاج أن الجالية التركية في المهدية هيمنت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الحياة الإقتصادية للمجال المهدوي على حساب العناصر الأخرى خاصة العنصر المحلي والعناصر الوافدة من داخل البلاد.

من بين الفئات الإجتماعية بالمهدية نذكر العبيد المعتوقين الذين كونوا فئة أقلية وتم عتقهم بعد إعلان قانون إلغاء العبودية بتونس العثمانية من قبل المشير "أحمد باي" سنة 1846 على أنها حدث هام وسم القرن التاسع عشر ضمن منظومة الإصلاحات السياسية والاجتماعية والعسكرية التي بوأت تونس في صدارة الأقطار الإسلامية التي بكرت بعملية الإصلاح والتحديث². وكانت العائلات الحنفية بالمهدية تمتلك نسبة هامة من المعاتيق العبيد بها، ف سنة 1859 بلغ عددهم 33 نفرا وهم يمثلون قرابة الضعف من عدد اليهود الذين بلغوا 19 نفر فقط³. أما سنة 1861 فقد بلغ عدد العتقاء من العبيد 16 عنصرا⁴. وفي سنة 1862 إرتفع عددهم إلى 37 فرد⁵. وفي هذا الإطار إنهر الرحالة "هنري دونان" Henri Dunant بالمعاملة الحسنة التي كان العبيد أو المعتوقين يعاملون بها، مشيرا إلى إعجابه بمدى عدل قانون إلغاء العبودية كونه مكن العبيد من الزواج وإمكانية أن يرث سيده عند وفاة هذا الأخير⁶.

من العناصر الأخرى التي إستقرت بالمهدية خلال الفترة العثمانية هم اليهود الذين وجدوا بالساحل التونسي، إذ قدم الكثير منهم من إسبانيا في القرن الثامن عشر. قدر عددهم بالبلاد قبيل إنتصاب الحماية الفرنسية 2000 نسمة⁷. أما فبالنسبة إلى مدينة المهدية فقد كان المجتمع المحلي يحتوي على ما يقارب 35 يهودي سنة 1862⁸ حسب ما تبرزه الوثائق الأرشيفية وهي نسبة مهمة مقارنة بسوسة التي إستقر بها حسب معطيات المجبى لسنة 1863 ما يعادل 17 نفرا. أما سنة 1946 فقد بلغ عدد

¹ -الأرشفيف الوطني التونسي، دفتر عدد 942.

² - بنسعيد (سميرة)، من العبيد إلى الشواشين بقايا العبودية بالبلاد التونسية 1848-1914، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، السنة الجامعية 2011-2012، ص 5.

³ -الأرشفيف الوطني التونسي، دفتر عدد 759 وعدد 852.
²⁹ - نفسه.

⁵ - نفسه، دفتر عدد 945.

⁶ - دونان (هنري)، مذكرة عن إيالة تونس...، مصدر سابق، ص ص 117-118.

⁷ - Sebag (Paul), « Les juifs de Tunisie... », *op.cit*, p.501.

⁸ -الأرشفيف الوطني التونسي، دفتر عدد 945.

اليهود 3574 وكانت وجهتهم المنستو والمكنين والمهدية¹.

إلى جانب اليهود توطن بالمهدية فئة الأوروبيون منذ فترة ما قبل الحماية وأثناءها وأصبح لهم دور فعال في هذا المجال². ويعود إستقرار السكان الأوروبيون في مدينة المهدية إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر³، حيث بلغ عدد الأوروبيين 803⁴ من فرنسيين وإيطاليين وعددهم 279 نفر، وكذلك مالطيين وغيرهم من العناصر الأخرى.

(ب)- المميزات الاقتصادية

- النشاط الفلاحي

إشتهر الساحل منذ العهد القرطاجي بغرسة الزيتون، وظلت هذه الغرسة في إنتشار طيلة الفترة الوسيطة ويذكر في هذا النطاق الرحالة "اليعقوبي" في القرن التاسع بأن الساحل "ليس بساحل البحر كثير السواد من الزيتون والشجرة والكروم، وهي قرى متصلة بعضها في بعض كثيرة"⁵. يورد "البكري" في القرن الحادي عشر "وبنها (القيروان) وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم"⁶. يذكر الأستاذ محمد حسن "بأن الساحل قد شكل وحدة جغرافية وإقتصادية وإدارية متميزة على سائر البلاد فهو عبارة عن مجموعة من القرى المتصلة بعضها ببعض تمتد من شمال سوسة إلى ناحية صفاقس، وقد

¹ -Despois (Jean), *La Tunisie Orientale...*, op.cit, p.497.

² - جرفال (كمال)، الأوروبيون في منطقة الساحل (دراسة ديموغرافية من 1887 إلى 1956)، شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1988-1989، ص 7.

³ - Sebag (Paul), « Les juifs de Tunisie... », op.cit, p.501.

⁴ - الصغير (عميرة علي)، "المهدية وظهيرها: الإحتلال وإعادة التنظيم"، روافد، مجلة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، عدد4، 1998، ص.108.

⁵ - اليعقوبي (أحمد ابن أبي يعقوب بن واضح)، البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، بدون تاريخ، تاريخ، ص 35.

⁶ - البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، الجزء الأول، 1992.

تسمت في العهد الأعلي بساحل القيروان لإمتداد ملكية العقارية إلى بلاد الساحل...وذلك فضلا على الدور البحري لكل من سوسة والمهدية والمنستير والقائم خاصة على تجارة الزيت¹.

أما في الفترة الحديثة فقد لقي الساحل التونسي ونخص بالذكر مدينة المهدية خلال القرن التاسع عشر إهتمام الرحالة الأوروبيين من بينهم "بيسونال" Peyssonnel الذي لفت إنتباهه غراسة الزيتون بالساحل واصفا إياها في قوله "ولانجد بها سوى الغسول الرومي أو النباتات البحرية ولا توجد غابات، إلا بعض عياض من الزيتون التي زرعت قرب القرى، الموجودة في أماكن مختارة نوعا ما، خاصة في جهة سوسة والمنستير"²، معرجا على إعجابه بالمجال القروي بالمنستير قائلا بأن "ريف المنستير جميل جدا، به الكثير من الزيتون والكروم، التين، والنخيل..."³.

أما "بونساي" Poncet يرى بأن "الساحل من أكثر سكانا وزراعة وإعتبره مركز ثقل تونس الشرقية كونها مثلت لمدة قرون الجهة الأكثر ثراء وحيوية في البلاد"⁴، ويرى "جون ديبوا" Despois أن الساحل "يضم سوسة وقراها وساحل وسطي يضم المنستير وقراها بينما يضم الساحل الجنوبي المهدية وقراها"⁵ وقراها⁵ ويفسر سبب أهمية منطقة الساحل لإقتصادها المرتبط بزراعة الزيتون وإنتشار الملكية الفردية والعائلية⁶. أما "دولينوسان" De Lanessan يرى بأن منطقة الساحل تتميز بغابات الزيتون وتمتد من سوسة إلى المهدية⁷.

تخبرنا أدبيات الرحالة بأهمية غابات الزيتون بالمهدية خلال ستينات القرن التاسع عشر على غرار شهادة الرحالين الفرنسيين "قانيات" و"سالادان" Cagnat et Saladin بأنه "على طول خمس ساعات على الطريق (متجهين من المهدية إلى الجم) ونحن نعبّر غابة من الزيتون"⁸. وتدعم معطيات

¹ - الفريني (محمد)، زيت الزيتون في الإيالة التونسية: تاريخ مادة غذائية أساسية في العهد الحديث، جامعة تونس كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، 2016، ص 67.

² - بيسونال (جون أندريه)، الرحلة إلى تونس (1724)، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003، ص 74 وص 114.

³ - نفسه، ص 74.

⁴ - Poncet (Jean), *Paysage et problèmes...*, op.cit, p.124.

⁵ - Despois (Jean) : *La Tunisie: ses régions*. librairie armand, colin, Paris, 1961, p.128.

⁶ - Despois (Jean), *La Tunisie orientale...*, op.cit, p.281.

⁷ - De Lanessan (J.L), *La Tunisie...*, op.cit, p.5.

⁸ - Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie...*, op.cit, p.41.

الدفاتر الجبائية ما ذهب إليه الرحالين، حيث تظهر الإحصائيات الأرشيفية أن نصيب قانون الزيتون على بلد المهديّة قدر بـ 18934 أصل زيتون¹ سنة 1836. أما في سنة 1840 فقد دفع من قانون زيتون وطن المنستير 42435 ريالاً وربع و11 نواصري أي ما يساوي 189874 أصل زيتون². وارتفع نصيب المهديّة سنة 1867³ ليلغ 44801 ريال وجملة أصول الزيتون بها يقدر بـ 198905. وعلى ما يبدو أن الجهة قد احتكرت نصيب الأسد من إجمالي عدد أصول زيتون بلد المنستير بنسبة 49.45 % من الإجمالي متفوقة على كل من بلد قصور الساف 29.19% ثم بلد طوزة 14.72% سنة 1840⁴.

ظلت الأنشطة الحرفية والتجارية مرتبطة بمحاصيل الفلاحة وتحديدًا غرسة الزيتون، ففيما تمثل النشاط الحرفي بالمهديّة خلال الفترة العثمانية حسب ما ذكرته كتابات الرحالة؟

- النشاط الحرفي

كان الساحل منذ القديم مجالاً للصناعات التقليدية التي تشغل حوالي ثلث اليد العاملة وخاصة صناعة النسيج⁵، ومثل قطاع النسيج نشاطاً إقتصادياً هاماً في حياة الساحلي وهي حرفة يتقنها الرجال والنساء على حد السواء، فقد ذكرت الأستاذة ليلي بن عبد العزيز أن المرأة بالساحل كانت تنسج الزربية في كل من القلعة الكبرى وأكودة والوردانين والشابة والجمل وبومرداس. ومن بين المنسوجات الصوفية نذكر ما يسمى "الكليم" و"الكساية" كذلك "الحايك" للمرأة و"البرنس" وهو لباس للرجال وكذلك "الوزرة" التي تستعمل غطاء في فصل الشتاء. وجدت هذه الحرفة بقصر هلال وجمال

¹ - الأرشيف الوطني التونسي، دفتر عدد 2435.

² - مصدر سابق، دفتر عدد 1658.

³ - مصدر سابق، دفتر عدد 978.

⁴ - نفسه.

راجع أيضاً في هذا السياق مقال حمدي (سنية)، "أتراك المهديّة من وافدين عسكريين إلى أعيان محليين: من القرن 18 إلى النصف الثاني من القرن 19"، المجلة المغاربية للدراسات العثمانية، مركز التميي للبحث العلمي والمعلومات العلمية، عدد 45-46، ديسمبر 2012.

- سنية حمدي، الأتراك العثمانيون بالساحل التونسي في العهد الحسيني، أطروحة دكتوراه، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، السنة الجامعية 2017-2018.

⁵ - ستهم (حافظ)، شخصية الأقاليم الجغرافية التونسية، مركز النشر الجامعي، 1999، ص 152.

والمهدية¹ وفي مدن مثل سوسة والمنستير والمهدية والمكنين وقصر هلال يصنعون منسوجات ممزوجة بين الحرير والصوف².

- النشاط التجاري

تشير أغلب كتابات الرحالة إلى أهمية الموانئ التجارية لمدن الساحل التونسي وتحديدًا لمدينة المهدية قبل الفترة العثمانية حسب ما ذهبت إليه الكتابات التاريخية سواء للمؤلفين أو الرحالة³ إلى أهمية موقع مدن الساحل التونسي على المستوى الاقتصادي وخاصة فيما يتعلق بالتجارة البحرية. ويذكر البكري في هذا النطاق أن سبب الإزدهار التجاري للمدينة يعود إلى فترة الفاطميين في عهد عبيد الله الذي كان في عهده يحتوي (دارا لصناعة القوارب) على أكثر من 200 قارب تجاري⁴. يذهب الرحالة "قراامي" Gramaye أن لمدينة المهدية ميناء هام وقد كان سكانها يمتنون نشاط القرصنة أواخر القرن السادس عشر⁵. ويدعم "ليون الإفريقي" ما أورده "قراامي" وإعتبر "أن (أغلب)

¹ - بن عبد العزيز (ليلى)، المشائخ بالساحل التونسي في الفترة الإستعمارية 1881-1956 مقارنة في البروزوغرافيا والتاريخ الاجتماعي، رسالة بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، السنة الجامعية 2015-2016، ص 31.

² -Despois(Jean), *la Tunisie orientale,....,op.cit*, pp.310-311.

³ - راجع:

- البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك....، مصدر سابق، ص 30.

- برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني، تونس 1988، ص 232.

- الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، نقله إلى الفرنسية روجي إدريس، باريس 1983، ص 108.

أنظر كذلك:

- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، بدون تاريخ، ص 73.

- القزوي (محمود)، أثار وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 27.

⁴ - البكري، المسالك والممالك....، مصدر سابق، ص 31.

⁵ - Gramaye (Jean – Baptiste), *Le royaume de Tunis...., op.cit*, p.97.

سكان المهدية يزاولون التجارة البحرية¹. نوه "هنري دونان" Heni Dunant في القرن التاسع عشر إلى حسن ميناء مدينة المهدية وإعتبره من أحسنها في الإيالة².

يذكر الرحالين "قانيات" و"سالادان" Cagnat et Saladin في شهادتهما "بأن مدينة المهدية تمتلك أكبر ميناء تجاري في الساحل³ تنتشر على حافته الكثير من قوارب قادمة من الإسكندرية وسوريا وصقلية وإسبانيا ومدن أخرى ويحتوي الميناء على ثلاثون مبنى⁴ مخصص للنشاطات التجارية. من الصناعات التجارية المنتشرة بالمهدية هي صناعة الصابون والزيت تقليدية وقد تم إنشاء أول معصرة عصرية بالمهدية سنة 1883⁵. وجد بالساحل قرابة سبع مائة وتسعة وسبعين معصرة لزيت الزيتون وهي نوعان تقليدية وعصرية⁶، فمدينة المهدية وحدها بها ثمانية وثلاثون معصرة⁷ وبالمستير ثلاث مائة واثنى عشرة معصرة زيتون⁸.

نلخص مما سبق، أن كتب الرحالة الأوروبيين تناولت أهم خصائص المهدية خلال الفترة العثمانية. فمن خلال توصيف للمجتمع وإقتصاده نسجوا صورة واضحة الملامح عن المدينة، فكيف صورت عيون هؤلاء الرحالة التراث المادي للمدينة؟

(II)- التراث المعماري العسكري بالمهدية من خلال كتابات الرحالة في

الفترة العثمانية

¹ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، المملكة العربية السعودية، ص 459.

² - دونان (هنري)، مذكرة عن إيالة تونس....، مصدر سابق، ص 85.

³ - Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie...*, op. cit, p.41.

⁴ - Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie...*, op. cit, p.41.

⁵ - اللطيف (علي)، الربا والمرابون في ظهير سوسة بين سنتي 1931-1935، المعهد العالي لتاريخ الحركة الحركة الوطنية، منوبة 2013، ص 47.

⁶ - Despois(Jean), *la Tunisie orientale...*, op.cit, p.300.

⁷ - الصغير (عميرة علي): "المهدية ومحيطها"....، مرجع سابق، ص 114.

⁸ - أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، أرشيف الإقامة العامة، ب G9، ص 62، ور. ع. 11.

عمد الإسبان سنة 1555 ثم سنة 1597 إلى تخريب التحصينات العسكرية بمدينة المهديّة من ميناء ودار الصناعة عن طريق البارود¹، مما أدى إلى تعويض الطريقة الفاطمية وما سبقها من إنجازات الحكام، بسياسة دفاعية أخرى أكثر نجاعة، وهي تشكيل حزام الأسوار بطريقة متقطعة متكونة من طبخانات ساحلية ترتكز إلى حصنين رئيسيين: البرج الكبير والبرج الصغير².

1- البرج العثماني (البرج الكبير)

يحمل هذا المعلم تسميات عدة، فالوثائق الأرشفية تطلق عليه "البرج الفوقاني"، أما الكتابات التاريخية والتقارير العسكرية فهي تطلق عليه "البرج العثماني". تؤرخ المصادر التاريخية للبرج بأن تاريخ تشييده يعود إلى سنة 1540 من قبل درغوث باشا³، أما تاريخ إنهاء البناء كان في شهر محرم سنة 1004هـ/1587م حسب النقيشة⁴ الموجودة داخل المعلم، وقد أطلقت عليه تسمية "الحصار". يرجح "كربخال مارمول" Marmol⁵ أن البرج العثماني قد بني على آثار منشأة دفاعية موروثة يطلق عليها في وصفه تسمية "القلعة"، وهو معلم سابق عن الفترة العثمانية وجد في الموقع الذي تتفق جل كتب الرحالة والجغرافيين على أنه مكان قصر عبيد الله المهدي. ويقع البرج العثماني في مركز شبه الجزيرة ويطل على أنقاض الميناء الفاطمي. ويرجح أنه شيد فوق بقايا آثار القصر الفاطمي للقائم بأمر الله (934-946م)⁶.

وأشار الرحالة أمثال "دسفتان" و"بيسونال" Peyssonnel et Desfontaines عند زيارتهما للمدينة سنة 1725 إلى أنها "مهذمة تقريبا، الأسوار قد سقطت ولم تكن قادرة على تحصين المدينة، وفي وسط

¹ - جلّول (ناجي)، التحصينات الساحلية العثمانية في إيالة تونس من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، تقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، الجزء الأول، زغوان، ص 224.

² - جلّول (ناجي)، التحصينات الساحلية العثمانية....، مرجع سابق، ص 224.

³ - Monchicourt, « Episodes de la carrière tunisienne de Dragut », *Cahier de Tunisie*, 1972.

⁴ - Roy (B), « L'inscription arabes de Mahdia », *R.T.*, n°33, 1915.

⁵ - كربخال (مارمول)، إفريقيا...، مصدر سابق، ج 1، ص 73.

⁶ - Zbiss (Mostafa Slimane), *Mahdia et Sabra – Mansouriya nouveaux documents d'art fatimide d'occident*, 1956, Paris, Imprimerie nationale, p.80.

المدينة ومن أعلى تل، شيدت قلعة مربعة الشكل بأربعة معاقل سيئة وقليلة الحصانة"¹، وعلى ما يبدو أن هذا البرج العثماني يتكون من حامية وأغة يأتي إليها كل عام من تونس².

وقد مرّ البرج بمراحل تاريخية عدة على المستوى الإنشائي خلال القرن السادس عشر، فقد قام الأتراك العثمانيون بتجديده بعد أن استولى عليه الإسبان سنة 1550. وفي هذا السياق يؤكد المؤرخ "روبار برنشفيك" أن البرج شيد في تلك الفترة في قوله "عندما يئس المحاصرون من إخضاع المدينة بسرعة قرروا أن يشنوا هجوما عليها، فجمعوا عن طريق البر والبحر على البرج العالي الذي كان يحمي الميناء"³، ويدعم "مارمول" Marmol ما جاء به مضيفا بأن الإسبان قد "خربوا حصونها وأخلوا عمارتها، وفر سكانها"⁴.

وفي مرحلة ثانية، أعيد ترميم البرج من جديد بعد عودة الأتراك العثمانيين عندما بعث أهالي مدينة المهدية عديد الشكاوى إلى السلطان يشكون فيها سوء الوضع الأمني بالمدينة، فكانت عملية إعادة بناء ما هدم بعد سنة 1576. إلا أن هذا التحصين قد تعرض من جديد لضربات الإسبان سنة 1597 وفي فترة أخرى تعرض لهجمات الفرسان المالطيين خلال القرن السابع عشر⁵.

وبإقامة البرج العثماني على أنقاض القصر الفاطمي، تحول من مركز سكني إلى مركز دفاعي، وأصبح برجا للحراسة والمراقبة واعتبر إحدى النقاط الدفاعية التي تؤمن المدينة والبحر. وبانتهاج حكام تونس سياسة تهدف إلى فرض نفوذهم بالداخل، ازدادت أهمية البرج وتحول منذ أواسط القرن السادس عشر إلى حصن عسكري يقيم فيه الجند ليراقبوا منه التحركات في البحر وتحركات القبائل.

زادت أهمية البرج العسكري في الفترة الحسينية وخاصة خلال القرن التاسع عشر وكما أشار "المشرع الملكي" إلى أن "هذه المدينة سكانها كلهم كوارغلية وهم يزيدون على ثلاثماية والسكان من غيرهم بينهم قليل"⁶، فتزايدت حاميته وحدد عددهم دفتر عسكر الحنفية لسنة 1832 بـ 28 جنديا،

¹ - Rgaya (Mourad), « Groupes ethniques et formations sociales religieuses et militaires à Mahdia dans la deuxième moitié du XIX^{ème} siècle », R.H.M, p.171.

² - بن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي....، مصدر سابق، ج 2، ص 157.

³ - برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية....، مصدر سابق، ص 233.

⁴ - كربخال (مارمول)، إفريقية....، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص ص 70-94.

⁵ - Djalloul (Neji), *Les fortifications côtières ottomanes dans la Régence, Tunis, Zaghouan*, 1995, p.126.

⁶ - ابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي....، مصدر سابق، ج 1، ص 157.

وأصبح يشكل أغلبية السكان بعد أن تزايد عدد أفرادهم واكتسبوا الثروة، فتكون بذلك مجتمع المدينة المتميز بحيويته ونشاطه والذي اشتهر بمهاراته في نشاط التجارة والفلاحة فإنتشرت زراعة الزيتون حول المدينة وخارجها.

كانت المراسلات تبعث بين نوبة المهديّة والبايات الحسينيين خلال القرن الثامن عشر للإخبار حول سلامة تعداد العسكر بالديوان كما هو الحال في إرسال آغة نوبة المهديّة البلوكباشي أحمد خوجة إلى حمودة باشا تقريراً حول صحة إحصاء العسكر بديوان الحنفية الذي يتكون من 43 نفر ولقبهم بـ"المجاهدين" وذلك سنة 1795¹.

ب- البرج الفاطمي (البرج الصغير)

أحدث هذا البرج في مدخل المدينة ويعود تاريخ تأسيسه حسب "بايسونال" Peyssonnel² إلى ما قبل سنة 1555، حيث قام الأتراك العثمانيون بعد سيطرتهم على المدينة بترميمه عديد المرات³. ويحمل هذا البرج إسم "البرج اللوطاني" حسب معطيات الوثائق الأرشيفية⁴. تميزت مدينة المهديّة منذ بداية نشأتها بقوة تحصيناتها الدفاعية، حيث نجد البرج الصغير أو "باب الفتوح" أو "برج المنصور"⁵ ذلك أن البرج الصغير يشكل الطابق السفلي للباب الفاطمي⁶.

¹ -الأرشفيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة 171، الملف 909، ص 113.

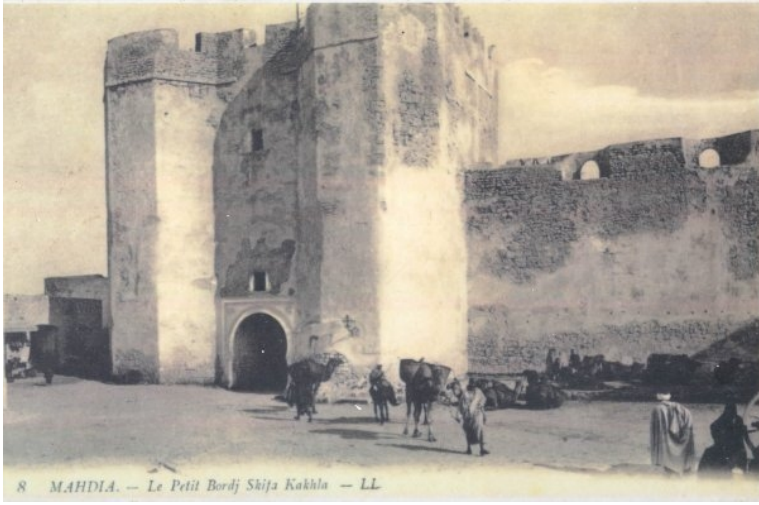
² - Peyssonnel (J A), *Relations d'un voyage...*, op.cit, p.97.

³ -الأرشفيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة 171، الملف 909 / 1795-1888، كذلك الحافظة 161، الملف 724 / 1867.

⁴ - نفسه.

⁵ - أطلق عليه تسمية باب منصور بإعتبار أنه مثل المكان الذي تحصن به الخليفة الفاطمي المنصور زمن ثورة صاحب الحمار وكان يشرف منه على جيوش أبي يزيد.

⁶ - جلّول (ناجي)، التحصينات الساحلية العثمانية...، مرجع سابق، ص 224.



صورة عدد 1: البرج الصغير والسور بمدينة المهدية أواخر القرن التاسع عشر¹.

يمتد الجزء الثاني للبرج إلى الناحية الجنوبية ويتكون حسب تقارير وزارة الحرب لسنة 1861 من مستويين سفلي وعلوي كانا في حاجة إلى الترميم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وترتفع فوق هذا المعلم مصطبة لاستقبال المدافع تمت حمايتها بواسطة ستارة، وتحتوي على عدد من الشرفات. وتعتبر هذه الأخيرة من العناصر الثلاثة الأساسية في الزخرفة للمعمار العسكري خلال الفترة العثمانية. وقد شيدت هذه الشرفات ليحمي الجندي المدافع من طلقات المهاجمين، ويختلف تصميمها من برج إلى آخر. وبالنسبة إلى البرج الصغير فإن معظم الشرفات موجودة على شكل فجوات بين فتحات المدفعية، كما وقع تدعيم البرج بأبراج مئمنة وأسوار من التراب.

ج- السور

كانت المدينة محاطة بسور غاية في الحصانة في عهد عبيد الله المهدي الذي أحاطها حسب الرحالة "ليون الإفريقي" بأسوار عالية قوية، مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد²، وحسب "البكري" كان السور مزودا بثمانية أبراج³ وذهب "أبن أثير" إلى أنه كان مزودا بأربعة أبراج وستارة بلغ

¹ - صورة من أرشيف بلدية المهدية.

² - الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر سابق، ص 458.

³ - البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ص 30.

ارتفاعها في تقدير الرحالة "مارمول" ¹Marmol ما يعادل 12 قدما وأحيط بخندق فيه الماء عند الحصار وحسب تقديرات الرحالين "قانيات" و"سالادان" Cagnat et Saladin يبلغ طول ألفي متر ². وقد كانت المدينة مسورة بسور فاطمي، ويفيدنا الأستاذ ناجي جلّول حول هذا الاستحكام، بأنه كان يسد المضيق الفاصل بين مدينة المهدية وزويلة وفي أطرافه يقوم برجان مثنان. أما الجدار فكانت تدعمه أربعة أبراج مربعة وضخمة تحمي مدخل المدينة ويطلق عليه بـ"باب الفتوح" الذي يتصل بدوره بسور ثان متجه نحو الشرق بواسطة ممر تحميّه عدة أبواب متتابعة صنعت من الحديد. أما السور الثاني الكبير المتجه نحو الغرب فتوجد به ستارة أقل سمكا تدعمها أبراج نصف دائرية ويحف بها خندق فسيح يتصل بالبحر شمالا (زويلة) وجنوبا (المدينة) ³.

لكن ذلك السور وأغلب التحصينات العسكرية هدمها الإسبان في القرن السادس عشر، فالمصادر العسكرية ⁴ وكتب الرحالة ⁵ إلى حدود ستينات القرن التاسع عشر تؤكد غياب الأسوار عن الجانب الغربي، إذ يرسم الرحالة الفرنسي Charles De Chassirons في وثائقه الإستطلاعية بقايا سور ظل قائما إلى حدود سنة 1849 ثم أندثر ولم يعد موجودا بالقسم الغربي للمدينة ⁶ هو ما أكدّه "بيلسيي" Pellissier عند وصفه المدينة سنة 1857 في قوله "أنها كانت تحتوي حصنا في أعلى نقطة

¹ - كريخال (مارمول)، إفريقيا...، مصدر سابق، ج3، ص ص 89-90.

² - Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie...*, op. cit, p.41.

³ - جلّول (ناجي)، التحصينات الساحلية...، مرجع سابق، ص 227.

⁴ - De chassirons (Charles), *Aperçu pittoresque...*, op.cit, p.120.

⁵ - Pélissier (E), *Description de la régence...*, op.cit, pp.95-96.

- Guerrin (v), *voyage archéologique...*, op.cit, p.132.

⁶ - من الدراسات الجامعية الهامة التي تناولت مدينة المهدية نذكر: الكعبي (رضوان)، مدينة المهدية خلال الفترة العثمانية معالمها التاريخية وخصائص عمارتها الدينية (دراسة تاريخية وأثرية)، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في تاريخ وحضارة العالم المتوسطي (اختصاص الآثار والفنون الإسلامية)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، قسم التاريخ، 2003، ص 29.

من شبه الجزيرة إضافة إلى بقايا سور متهدم"¹، وهو ما أتفق معه "جيران" Guerrin سنة 1860² إلا أنه تم إنشاء سور يحصن المدينة سنة 1864³.

بالنسبة إلى الظرفية التاريخية لتشييد سور العهد الحسيني، فهي تعود إلى فترة ثورة علي بن غداهم سنة 1864 بإعتبارها كانت سببا أساسيا في إنشاء هذه المنشأة حسب ما ذكره هانزو⁴. وفي هذا الإطار حاول سكان المدينة حماية مدينتهم من عمليات النهب والسرقة من قبل القبائل المحيطة بهم. إذ كانت هذه المدينة مركزا يتجمع فيه الأثرياء وكبار الملاكين العقاريين الأتراك من جهة والأوروبيين من جهة ثانية⁵. ويذهب البعض⁶ إلى أن السور الحسيني قد شيد مكان السور الفاطمي، وتم بناؤه لغلق المدينة من البحر إلى البحر، وقام إثرها القائد العسكري محمد صفر بتحسين السور بواسطة مجموعة من المدافع المجلوبة من البرج الكبير⁷.

ومن مكونات السور العثماني من الناحية المعمارية، الأبواب. فهذا التحصين يضم بابين إثنيين، يوجد الأول حسب تقارير الرائد الفرنسي جرفاي⁸ في وسط السور وهو مدخل ثانوي يصطلح أن يسمى بباب الخوخة كما ذكر الأستاذ رضوان الكعبي. أما المدخل الرئيسي فيفتح باتجاه الشرق قبلة الباب الأول ويغلق مدخل الباب الرئيسي عادة في الليل⁹.

¹ - Pélissier (E), *Description de la régence...*, op.cit, pp.95-96.

² - Guerrin (V), *Voyage archéologique...*, op.cit, p.132.

³ - يثبت المسح الأثري - العسكري المتواجدة بوثائق الجيش الفرنسي، وجود سور يحصن البرزخ، وقد أخذ السور الجديد مكان السور القديم، راجع:

Archive de l'armée de terre française, bobine S :247, archive 2 H-1, dossier n° 1, pp.157-171.

⁴ - Hannezo (C), *Mahdia...*, op.cit, p.247.

⁵ - الكعبي (رضوان)، مدينة المهدية.... مرجع سابق، ص 30.

⁶ - Lezine (Alexandre), *Mahdiya recherches d'archéologie islamique*, éditions C. Klinksieck, Paris, 1965, p.21.

⁷ - الكعبي (رضوان)، مدينة المهدية.... مرجع سابق، ص 30.

⁸ - Juffé (C), « Rapport sur Mahdia... », op.cit, p.10.

⁹ - الكعبي (رضوان)، مدينة المهدية.... مرجع سابق، ص 31.



صورة عدد 2: مشهد لمجمل المنشآت العسكرية بالمهدية رسمه الرحالة الفرنسي Charles

.¹ De Chassirons

(III)- المميزات الإجتماعية والثقافية

إن العادات والتقاليد جزء من الشخصية الثقافية في المجتمعات الإنسانية وعنصر من عناصر الفرد في مجتمعين. وقد كون السكان الأصليون للمهدية بصفة خاصة مع الوافدين الأتراك انسجاما إجتماعيا قد يكون ناتجا عن الماضي الشيعي لمدينة المهدية، والذي جعل سكانها يختلفون في عاداتهم مع باقي السكان . وإن كانوا يتبعون المذهب السني . وكان الأتراك بدورهم من أتباع المذهب الحنفي وتختلف عاداتهم بدورها عن الأغلبية السنية في البلاد التونسية، وقد قبل السكان الأصليون هذا العنصر الوافد لأنه يشاركهم الدين وساهم في تخليصهم من الغارات المسيحية² فاستقبلوهم وفتحوا لهم أبوابهم وزوجوهم بناتهم، فصاروا أفراد محليين رغم مميزاتهم الإجتماعية الخاصة.

وتشير الوثائق إلى وجود حالات مصاهرة بين الفتنين الوافدة والأهلية، ففي بداية توافد الأتراك إلى المدينة تزوج علي آغة بإحدى النساء المهدويات وخلف أبناء كوارغلية مثل عائلات علي وكافية وتركية ورقية، كذلك حصل لشعبان بيك بن عبدالله التركي³.

¹ - De chassirons (Charles), *Aperçu pittoresque...*, op.cit, p.45.

² - التميمي (عبد الجليل)، "الخلفية الدينية للصراع الإسباني . العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 10-11، جانفي 1978، ص13.

³ - قاسم (أحمد)، إيالة تونس...، مرجع سابق، ص 66-67.

ونلمس هذا الإنصهار الاجتماعي بين العنصرين في المدينة من خلال العثور في الوثائق الأرشيفية على تسميات مثل " بنت مبروك جبارة وزوج المرحوم محمد الرحيل وورثة زوجها" و"صالحة بنت محمد صفر فلفل وورثة زوجها محمد بلال"¹ وهي تسميات تحمل أسماء تركية وأخرى محلية.

وهكذا يمكن القول أن هذه العناصر الوافدة من شمال المتوسط وشرقه لم تكن منغلقة على ذاتها رغم إحساسها بالتفوق بل اندمجت في المجتمع المحلي عبر رابطة المصاهرة مما أنتج طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الكوارغلية² وأصبحت هذه العناصر مستقرة في الساحل الجنوبي للمتوسط بمثابة العناصر المحلية باختلاطها مع أهل المهدية المنحدرين من قبائل زناتة ومصمودة ومن الجالية الطرابلسية وغيرهم³ وكان الأتراك بهذا المعنى لقاحا ثمرا وخصيبا للمهدية على حد قول محمد بن الخوجة الذي يحمل أصول تركية⁴.

وفي المجال الثقافي كانت السلوكات الثقافية اليومية المتعلقة خصوصا بالغذاء، الذي يفضل فيه سكان المهدية أطباق الأسماك التي يرتبط وجودها بأهمية النشاط البحري، وبالعوادات الغذائية للجزر المتوسطية التي ينحدر الكثير من الإنكشاريين منها أو هم عبروها وهذا ما عبر عنه يرى الرحالة الإيطالي "بريتوا" Perpetua عند زيارته البلاد سنة 1883 أن مدن الساحل ثرية بإنتاج الأسماك⁵ مما يفسر قدم عادة إستهلاك المنتجات البحرية لدى السكان بالمهدية وإرتباط عاداتهم الغذائية بكل ما ينتجه البحر ذلك أن أغلب سكانها كانوا بحارة.

كما يبرز هذا التأثير في العادات المتبعة في الأفراح والمناسبات الدينية مثل الإحتفال بعاشوراء وهي ممارسة مميزة لجند الترك، ويتجلى هذا التأثير في الملابس التقليدية للسكان التي تحمل إلى اليوم التأثير التركي والتي امتدت إلى سكان المدن الداخلية مثل السراويل الفضفاضة للرجال ورداء السفساري للنساء والقفطان⁶. ويذكر في هذا النطاق الرحالة الفرنسي "بيسونال" Peyssonnel بأن

¹ - رقية (مراد)، "الجالية التوكية..."، مرجع سابق ، ص229.

² - بن الخوجة (محمد)، صفحات من تاريخ تونس، تقديم و تحقيق حمادي الساحلي و الجيلاني بلحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 1986، ص 226.

³ - فقيه (الطيب أحمد)، المهدية عبر التاريخ، دار القلم، تونس 1979، ص 274.

⁴ - بن الخوجة (محمد)، صفحات...، مصدر سابق، ص 226.

⁵ - Perpetua (J.), *Géographie de la régence...*, op.cit, p.21.

⁶ - Marcel (J.) et Louis (Frank), *Histoire de Tunis...*, op.cit, p.57.

للأتراك "ملابس وعمائم شبيهة بتلك الموجودة في المشرق"، أما الأهالي فيلبس معظم الميسورين "سراويل صغيرة وأقمصة بأكمام طويلة ومعاطف أو برانس من قطعة واحدة وطرايش، وهذه البرانس من صوف، وغالبا ما تكون من اللون الأبيض"¹.

ونتناول في هذا الصدد لباس طبقة العلم (القضاء ورجال الدين) والذي يكتسي صبغة خاصة مميزة لكل من المذهبيين المالكي والحنفي السائدين في البلاد التونسية. اللباس الحنفي وهو أثر تركي وقد تولى أصحاب المذهب المذكور نشر هذا اللباس في تونس زمن الحكم العثماني. ويدعى هذا اللباس في مجموعته بـ"القيافة" وهي عبارة عن ثلاث قطع رئيسية: الجوخة² والقفطان³ والفراجة⁴.

ومن التأثير التركي في اللسان التونسي إستعمال مصطلحات يومية متداولة على سبيل الذكر لا الحصر من أسماء المهن أو الألقاب مثل: قهواجي وبوسطاجي وقانونجي والحجام والقهواجي والحمال⁵، فضلا عن ألقاب مثل "أسطى"⁶. ومن أسماء الأدوات المستعملة على غرار "الكاليس" وهي تحريفا للفظلة للفظلة التركية "الكاليش" أيضا تداول كلمة "تبسي" وهو إناء يشرب فيه الماء.

¹ - بيسونال (جون أندريه)، الرحلة إلى تونس...، مصدر سابق، ص 56.

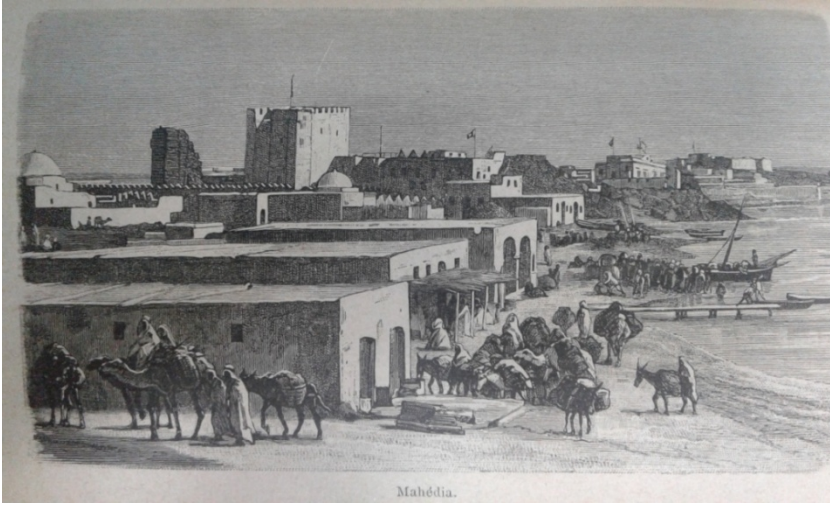
² - الجوخة: وهي القماش أو الصوف بالتركية. وتلبس الجوخة فوق صدرية وسروال فضفاض مطرز بالشريط.

³ - القفطان: ويلبس مباشرة فوق الجوخة وهو ثوب من أصل تركي ذو طابع عسكري وقد تكون له جذور فارسية وكان يعتبر رمزا للسيادة والنبيل. وهو عبارة على ثوب طويل إلى حد القدمين ومفتوح من الامام وله كمان يصلان الى الساعد واشد اتساعا من كمي الجوخة وهو محيط من قطعة واحدة تتسع من فوق الى الأسفل.

⁴ - الفراجة: تلبس فوق الجوخة والقفطان وهي ثوب فضفاض أوسع من القفطان وتسويه طولاً وهي مفتوحة من الامام وذات كمين أكثر اتساعاً وأقل طولاً من كمي الجوخة. ومجموعة هذه الملابس الثلاثة التي يطلق عليها اسم القيافة توشي بكونها ثوبا واحداً.

⁵ - الأرشيف الوطني التونسي، الدفاتر عدد 855، 942، 945، 971، 978.

⁶ - في اللهجة المحلية تعني العامل في مجال البناء أما في اللغة التركية فالمقصود بها الصانع الحرفي الماهر الذي أتقن صناعته.



صورة عدد 4: الحياة اليومية بالمهدية من خلال رسم للرحالين "قانيات" و"سالادان"
Cagnat et Saladin¹.

الخاتمة

يعتبر أدب الرحلة من أهم المصادر في كتابة تاريخ البلاد التونسية عموما والمهدية تحديدا، حيث حاولنا رؤية المهدية عبر عيون رحالة أوروبيون، فإعتمدنا في مبحثنا إلى إعتماد منهج الدراسة والإحصاء فالتقييم من أجل الولوج إلى عدة إستنتاجات، تتمثل أساسا في: مكانة أدب الرحلة في الإرتقاء بالإنسانية من الجهل المعرفي إلى التنوير الفكري في عرض صورة لشق مجالات مدينة المهدية خلال الفترة العثمانية وتحديد القرن التاسع عشر، بفهم أدق للتنوع العرقي والإثني للبلاد ثم الخصوصية الإقتصادية والتجارية للمنطقة، فضلا عن الإرث المعماري والعادات المحلية. وقد كان الفضل لكتابات الرحالة في التعريف بهذا المجال الساحلي الذي لا يزال في حاجة إلى مزيد الدراسة والبحث نظرا لأهميته التاريخية المحلية والعالمية.

(1)- قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية

1- كتب الرحالة الأوروبيون

- بيسونال (جون أندريه)، الرحلة إلى تونس (1724)، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003.

¹ - Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie...*, op, cit, p.41

- دونان (هنري)، مذكّرة عن إيالة تونس (1856-1857)، ترجمة وتحقيق محمد العربي السنوسي ، الطبعة الأولى ، دار سحر للنشر، تونس 2012..
- كريبخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الجزء الثالث، الرباط 1989.
- Cagnat (C) et Saladin (H), *Voyage en Tunisie*, Paris, Librairie Hachette, 1894.
- De chassirons (Charles), *Aperçu pittoresque de la régence de Tunis*, Paris 1849.
- De Flaux (A), *La régence de Tunis au dix – neuvième siècle*, Paris, Challamel Ainé, Libraire éditeur, 1865. - De Lanessan (J.L), *La Tunisie*, Paris, Félix Algan Editeur, 1887.
- Despois (Jean), *La Tunisie Orientale Sahel et Basse steppe étude géographique*, Paris, Presses de l'universitaire, 1955.
- Despois (Jean), *La Tunisie: ses régions*, Paris, Librairie Armand, Colin, 1961.
- Gramaye (Jean – Baptiste), *Le royaume de Tunis au XVIIe siècle*, traduction Azzedine Guellouz, Paris, Editions Bouchene, 1954.
- Guerrin (V), *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, Paris 1862.
- Marcel (J .J) et Louis (Frank), *Histoire de Tunis*, éditions Bouslama, 2^{ème} édition.
- Pélissier (E), *Description de la régence de Tunis*, Tunis, 1980, 2^{ème} édition.
- Perpetua (J), *Géographie de la régence de Tunis*, Tunis, Vittorio Finzi imprimeur Libraire Editeur, 1883.
- Peysonnel et Desfontaines, *Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger*, Paris, Librairie de Gide, 1938, Tome 1.
- Peyssonnel (J A), *Relations d'un voyage sur les cotes de Barbarie, présentation et notes de Lucette Valenci*, Paris, 1987.
- Poncet (J), *Paysage et problèmes ruraux en Tunisie*, Tunis, Publication de l'université de Tunis, 1962.

2- كتب الرحالة العرب

- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، نقله إلى الفرنسية روجي إدريس، باريس 1983.
- البكري (أبو عبيد)، المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب، الجزء الأول، 1992.

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، المملكة العربية السعودية.

- القزوي (محمود)، أثار وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- اليعقوبي (أحمد ابن أبي يعقوب بن واضح)، البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، بدون تاريخ.

3- المصنفات التاريخية

- ابن أبي لحية القفصي (المنتصر بن المرباط)، نور الأرماس في مناقب القشاش، دراسة وتحقيق لطفي عيسى وحسين بوجرة، تونس، المكتبة العتيقة، 1998.

- بن عظم المرادي (أبي القاسم)، كتاب الأجوبة، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2006، 11 جزء.

- ابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي، تقديم وتحقيق احمد الطويلي، تونس 1998، المجلد الأول والثاني.

5- الوثائق الأرشيفية

-الأرشيف الوطني التونسي

- دفاتر أعداد: 942 ، 945 ، 955 ، 960 ، 971 ، 855 ، 870 ، 855 ، 950 ، 900 ، 925 ، 759 ، 852 ، 2435 ، 1658 ، 978 ، 942 ، السلسلة التاريخية:

document 58, dossier 579, carton 53, A 3

الحافظة 171، الملف 909، ص 113.

dossier 746/ carton 161/ armoire 16

الحافظة 171، الملف 909/ 1795-1888.

الحافظة 161، الملف 724/ 1867.

- أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية:

Archive de l'armée de terre française), bobine S : 247, archive 2 H -16

-أرشيف الإقامة العامة، ب G9، ص62، ور. ع. 11.

6- المراجع

- ألتز (عزيز سامح)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1989، الطبعة الأولى، الجزء الثاني.

- برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، تونس، دار الغرب الإسلامي، 1988، الجزء الثاني.
- بن الخوجة (محمد)، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي و الجيلاني بلحاج يحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، الطبعة الأولى.
- التميمي (عبد الجليل)، دراسات في التاريخ العثماني المغربي القرن السادس عشر، زغوان، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ماي 2009.
- جرفال (كمال)، الأوروبيون في منطقة الساحل (دراسة ديموغرافية من 1887 إلى 1956)، شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1988-1989.
- جلول (ناجي)، التحصينات الساحلية العثمانية في إيالة تونس من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، الجزء الأول، تقديم عبد الجليل التميمي، زغوان، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
- حسن (محمد)، القيروان في عيون الرحالة، قرطاج، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2009، الطبعة الأولى.
- ستهم (حافظ)، شخصية الأقاليم الجغرافية التونسية، تونس، مركز النشر الجامعي، 1999.
- الفريني (محمد)، زيت الزيتون في الإيالة التونسية: تاريخ مادة غذائية أساسية في العهد الحديث، جامعة تونس كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2016.
- فقيه (الطيب أحمد)، المهدية عبر التاريخ، تونس، دار القلم، 1979.
- قاسم (أحمد)، أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عذوم، الجامعة التونسية، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1982.
- اللطيف (علي)، الربا والمرابون في ظهير سوسة بين سنتي 1931-1935، منوبة، المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، 2013.

المقالات

- الأرقش (دلندة)، "المدينة وفضاءها الخارجي: المنستو في القرن 19"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 48-47، 1987.
- التميمي (عبد الجليل)، "الخلفية الدينية للصراع الإسباني . العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 10-11، جانفي 1978.
- حمدي (سنية)، "أتراك المهدية من وافدين عسكريين إلى أعيان محليين: من القرن 18 إلى النصف الثاني من القرن 19"، المجلة المغربية للدراسات العثمانية، مركز التميمي للبحث العلمي والمعلومات العلمية، عدد 45-46، ديسمبر 2012.

- الصغير (عميرة عليّة)، "المهدية وظهيرها: الإحتلال وإعادة التنظيم"، روافد، مجلة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، عدد4، 1998.

الأطروحات ورسائل الماجستير

- بنسعيد (سميرة)، من العبيد إلى الشواشين بقايا العبودية بالبلاد التونسية 1848-1914، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، السنة الجامعية 2011-2012.

- بن عبد العزيز (ليلي)، المشائخ بالساحل التونسي في الفترة الإستعمارية 1881-1956 مقارنة في البروزبوغرافيا والتاريخ الإجتماعي، رسالة بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، السنة الجامعية 2015-2016.

- الكعبي (رضوان)، مدينة المهدية خلال الفترة العثمانية معالمها التاريخية وخصائص عمارتها الدينية (دراسة تاريخية وأثرية)، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في تاريخ وحضارة العالم المتوسطي (اختصاص الآثار والفنون الإسلامية)، منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، قسم التاريخ، 2003.

(II)- قائمة المراجع والمقالات باللغة الفرنسية

1-المراجع

- Bachruoch (Taoufik) , *Les Elites tunisiennes du pouvoir et de la dévotion contribution à l'étude des groupes dominants(1782- 1881)*, Publications de l'université de Tunis1,1989.
- Djalloul (Neji), *Les fortifications côtières ottomanes dans la Régence*, Tunis, Zaghouan, 1995.
- Hannezo (C), *Mahdia, notes historiques*, Tunis, éditions Cérès Productions, 1968.
- Lezine (Alexandre), *Mahdiya recherches d'archéologie islamique*, Paris, éditions C. Klinksieck, 1965.
- Zbiss (Mostafa Slimane) *Mahdia et Sabra – Mansouriya nouveaux documents d'art fatimide d'occident*, 1956, Paris, Imprimerie nationale.

2- المقالات

- Lanfreducci et Bosio, « Costa e discorsi di barbaria », traduit en français par Pierre Grandchamp, *Revue Africaine*, LXVI, 1925.

- Monchicourt, « Episodes de la carrière tunisienne de Dragut », *Cahier de Tunisie*, 1972.
- Rgaya (Mourad), « Groupes ethniques et formations sociales religieuses et militaires à Mahdia dans la deuxième moitié du XIX^{ème} siècle », *Revue d'Histoire maghrébine*.
- Roy (B), « L'inscription arabes de Mahdia », *Revue Tunisienne*, n°33, 1915.

- Sebag (Paul), « Les juifs de Tunisie au 19^{ème} siècle, d'après JJ BENJAMIN », *Les cahiers de Tunisie*, n°28, 4^{ème} trimestre, 1959.